رومنطيقيّو المشرق العربي:
حازم صاغية أو سيرة عقل لا يستقرّ

|| علي بدر ||



يصعب الدخول إلى كتاب «رومنطيقيو المشرق العربي» من دون الدخول أولاً إلى صاحبه نفسه. فحازم صاغية ليس من أولئك الكتّاب الذين يقفون خارج نصوصهم، إنما تحمل كتبه دائماً آثار الرحلة الفكرية الطويلة التي مرّ بها: من اليسار الراديكالي إلى مراجعات الحرب الأهلية اللبنانية، ومن نقد القومية واليسار إلى تبني حساسية ليبرالية نقدية، ومن لغة الحماسة الأيديولوجية إلى لغة التفكيك والشك والسخرية من السرديات الكبرى. لذلك لا يمكن قراءة هذا الكتاب باعتباره دراسةً عن الرومنطيقية فقط. إنه أيضاً وثيقة عن تحوّلات عقل صاحبه نفسه.

لهذا السبب تحديداً يبدو الكتاب إشكالياً ومثيراً في آن. فهو لا يصدر عن عقل مستقر، ولا عن مشروع مغلق وصل إلى يقيناته النهائية. بل يصدر عن عقل عاش سلسلة طويلة من الانقلابات الفكرية، وهذا ما يمنحه نقطة قوته ونقطة ضعفه معاً، لأنّ العقول التي لا تتغير تموت غالباً داخل يقينها، لكن العقول التي تتغير كثيراً تحمل معها أيضاً شبهة أخرى: هل نحن أمام تطور فكري أم أمام انتقال دائم من سردية إلى أخرى؟

في حالة حازم صاغية، يصبح السؤال مشروعاً. فقد عرف جيله سلسلة هائلة من الانهيارات: هزيمة الأحلام القومية، الحرب الأهلية اللبنانية، تآكل اليسار العربي، سقوط الاتحاد السوفييتي، صعود الإسلام السياسي، ثم انهيارات الثورات العربية. وهذه الأحداث لم يتم إنتاجها كمراجعات فكرية فقط، إنما أعادت تشكيل أدوات النظر نفسها. لذلك يبدو صاغية أحياناً ككاتب خرج من قلب الانهيارات العربية الكبرى.

ومن هنا تأتي حيوية الرجل. فمهما اختلف المرء معه يصعب اتهامه بالجمود. لقد امتلك شجاعة مراجعة أفكاره أكثر من مرة، وشجاعة مغادرة بيوت فكرية أقام فيها طويلاً، وهنالك جبن أيضاً في مواجهة الحالة التاريخية الخاصة بالتحديات الإسرائيلية والصهيونية في المنطقة. لكن الحيوية شيء والحصانة من النقد شيء آخر لأنّ التحول الفكري قد يصبح أحياناً فضيلة وقد يتحول أحياناً إلى ميل دائم لرؤية العالم بوصفه سلسلة أخطاء ارتكبها الآخرون. من هنا تبدأ الإشكالية.

في كتابه «رومنطيقيو المشرق العربي» (دار رياض الريس)، يبدو أنّ صاغية لا يقرأ الرومنطيقية في المشرق العربي فقط، إنما يقرأ تاريخاً طويلاً من الخيبات التي خرج منها جيله. كأنّ الكتاب ليس بحثاً في الأفكار وحدها بل أيضاً تصفية حساب فكرية مع أوهام -كما يعتقدها-قديمة عاشها هو نفسه مثل الأمة، الشعب، البطولة، الخلاص، الإرادة الجماعية، الأحلام الكبرى. كل هذه المفردات كانت يوماً جزءاً من اللغة السياسية لجيل كامل، ثم تحولت إلى موضوع شك وتشريح. لذلك، فالكتاب لا يتحرك في فراغ أكاديمي. إنه يتحرك داخل سيرة فكرية مضطربة، متقلبة، قلقة.

وهذا ما يجعل الكتاب إشكالياً منذ البداية لأننا لا نقرأ فقط دراسة عن الرومنطيقية، نحن نقرأ أيضاً عقلاً يحاكم ماضيه. وحين يحاكم مفكّر ماضيه الشخصي أو الجيلي، تصبح المسافة بين التحليل والتجربة أكثر هشاشة مما تبدو عليه. هنا يصبح السؤال ضرورياً: هل كان حازم صاغية يقرأ المشرق العربي فعلاً، أم كان يقرأ، بطريقة ملتوية، تاريخ جيله وهزائمه وأوهامه القديمة؟ هذا السؤال لن يختفي من الكتاب إنما سيظل يلاحقه حتى الصفحة الأخيرة.

الأطروحة الكبرى أو حين يتحول الشرق إلى خطأ رومنطيقي طويل

تقوم الأطروحة الأساسية في «رومنطيقيو المشرق العربي» على فكرة تبدو للوهلة الأولى ذكية ومغرية: أنّ المشرق العربي لم يعش الحداثة بوصفها عقلاً ومؤسسات وبناءً سياسياً حديثاً، بل عاشها بوصفها رومنطيقية سياسية، أي بوصفها اندفاعاً نحو الأمة والأسطورة والبطولة والإرادة والحنين والأصالة. وبهذا المعنى تصبح القومية العربية واليسار الماركسي والإسلام السياسي والشعبوية والثورية امتدادات مختلفة لمرض واحد أو لمزاج تاريخي واحد.

لكن هنا تبدأ المشكلة الحقيقية لأن هذه الأطروحة، رغم بريقها النظري، تحمل منذ لحظتها الأولى نزعة اختزالية شديدة. فهي تضع تاريخاً معقداً ومتشابكاً داخل قالب واحد شديد الاتساع: الرومنطيقية. وما إن يدخل هذا المفهوم إلى الكتاب حتى يبدأ بالتمدد مثل مادة لا تعرف حدودها. الأمة رومنطيقية، الشعب رومنطيقي، البطولة رومنطيقية، الأصالة رومنطيقية، الإسلام السياسي رومنطيقي، وحتى الحنين نفسه يصبح دليل إدانة. ومع الوقت يبدأ القارئ بالشعور أن المفهوم لا يعمل كأداة تحليل بقدر ما يعمل كشبكة ضخمة ملقاة فوق التاريخ كله.

وهنا يظهر السؤال الذي يكاد يهدم الأطروحة من أساسها: هل الرومنطيقية تفسير أم تسمية؟ لأنّ هناك فرقاً بين أن نصِف ظاهرة، وبين أن نفسرها. القول إن القومية العربية حملت عناصر عاطفية أو أسطورية أو خلاصية ليس اكتشافاً هائلاً، فمعظم المشاريع السياسية الحديثة فعلت ذلك. لكن السؤال الأهم: لماذا ظهرت هذه المشاريع أصلاً؟ ما القوى الاجتماعية التي صنعتها؟ ما أثر الاستعمار؟ ماذا فعل انهيار السلطنة العثمانية؟ ماذا فعلت الجيوش، والمدن، والطبقات الجديدة، والاقتصاد الريعي، والحدود الحديثة؟ هنا يبدو الكتاب متردداً أو صامتاً.

فالأفكار عند صاغية تتحرك أحياناً كما لو أنها كائنات مستقلة عن الأرض التي خرجت منها. القومية تصبح مزاجاً أكثر منها استجابة تاريخية. الإسلام السياسي يصبح حساسيةً وجدانية أكثر من كونه ابن تحولات اجتماعية وسياسية محددة. وكأنّ الناس اخترعوا أحلامهم في فراغ، لا في عالم من الهزائم والاستعمار والانهيارات.

الأغرب أنّ الأطروحة تقوم على مقارنة ضمنية مع أوروبا: أوروبا العقل والمؤسسات في مقابل شرق انجرف إلى الرومنطيقية. لكن هذه المقارنة نفسها تبدو انتقائية بصورة لافتة. فأوروبا الحديثة لم تكن بالعقل البارد وحده. لقد شيدتها الأساطير القومية، وعبادة الشعب، والحنين إلى الأمة، وصور البطولة والخلاص. لقد خرجت ألمانيا وإيطاليا وفرنسا من مصانع رومنطيقية ضخمة. بل إن بعض أكثر الكوارث الأوروبية رعباً خرجت من قلب هذا المزاج ذاته.

وهنا تظهر مفارقة شديدة القسوة. إذا كانت الرومنطيقية جزءاً من الحداثة الأوروبية نفسها، فلماذا تتحول في الشرق إلى تهمة؟ ولماذا تصبح في التجربة العربية علامة على التأخر أو المرض السياسي؟

من هنا يبدو أن الأطروحة الأساسية للكتاب لا تفسر الشرق الأوسط بقدر ما تعيد صياغته داخل قصة جاهزة: شعوب ضلت طريقها لأنها أحبت الأحلام أكثر مما ينبغي. لكنها قصة مغرية أكثر مما هي دقيقة. فالتاريخ لا يسير بهذا القدر من البساطة. الشعوب لا تتحرك بالشعر وحده، ولا تنهار بسبب العاطفة وحدها. وبين الحلم والكارثة، أشياء أخرى كثيرة: الجغرافيا، القوة، الاقتصاد، الإمبراطوريات، والاستعمار. لكن هذه كلها تتراجع فجأة أمام متهم واحد يكاد يتحمل وحده وزر قرن كامل: الرومنطيقية.

الرومنطيقية التي توقفت عند أبواب الليبرالية

لكن الاعتراض الأشد على كتاب «رومنطيقيو المشرق العربي» لا يتعلق فقط باتساع مفهوم الرومنطيقية أو اختزاله للتاريخ، بل يتعلق بشيء أكثر جوهرية: آلة النقد عند حازم صاغية تعمل بقوة هائلة حين تواجه القومية أو اليسار أو الإسلام السياسي، لكنها تتباطأ فجأة حين تقترب من الليبرالية نفسها. هنا يظهر نوع من التفاوت المثير للريبة. فالرومنطيقية تتحول إلى عدسة شديدة الحساسية تلتقط الأسطورة والحنين والخلاص والبطولة في كل مكان، إلا في المنطقة التي يقف عندها الكاتب نفسه.

فإذا كانت الرومنطيقية، بحسب الكتاب، تقوم على الخيال الجماعي، والإيمان بقصة خلاصية، وبناء هوية أخلاقية كبرى، وتضخيم بعض المفاهيم حتى تتحول إلى قدر تاريخي، فلماذا لا تنطبق هذه الآلية على الليبرالية ذاتها؟ لماذا لا يمكن قراءة الليبرالية باعتبارها أيضاً حاملة لميثولوجيا كاملة؟ أليست الفردانية الحديثة سردية كبرى؟ أليس الإيمان بالسوق الحرة يحمل بدوره وعداً خلاصياً؟ أليست فكرة التقدم المستمر نوعاً من الإيمان شبه الديني؟ أليست الديمقراطية الليبرالية نفسها قد تحولت خصوصاً بعد الحرب الباردة إلى نهاية تاريخ كونية بوصفها المصير الطبيعي للبشر؟

هنا يظهر التفاوت بوضوح. حين يرى صاغية الأمة، يكتشف الأسطورة، وحين يرى الثورة يكتشف الخلاص، وحين يرى الجماعة يكتشف الحنين، لكنه لا يمارس الشك نفسه تجاه الفرد أو السوق أو الحداثة الليبرالية، مع أن الفكر الغربي نفسه أمضى عقوداً في تفكيك هذه الأوهام. لقد هاجم فلاسفة ومفكرون من اتجاهات مختلفة - من اليسار إلى المحافظين إلى ما بعد الحداثة - فكرة أن الليبرالية عقل خالص أو أرض محايدة تقف خارج التاريخ.

وهنا تبلغ المفارقة ذروتها، فالرجل الذي خرج لمحاربة السرديات الكبرى يبدو كأنه انتهى إلى سردية أخرى أكثر تهذيباً. لم يعد الخلاص يأتي من الأمة أو الثورة أو الشعب، بل من الاعتدال والعقلانية والليبرالية ومجتمع الأفراد. تغيرت المفردات فقط، لكن البنية بقيت متشابهة: هناك طريق صحيح ضمني، وهناك انحرافات تاريخية وقعت فيها شعوب المشرق.

لكن ماذا لو قلبنا السؤال؟ ماذا لو كانت الليبرالية نفسها تحمل رومنطيقيتها الخاصة؟ ماذا لو كانت صورة الفرد الحر المستقل ليست وصفاً للإنسان بقدر ما هي خيال فلسفي؟ ماذا لو كانت السوق أيضاً أسطورة حديثة؟ ماذا لو كان الوعد بعالم عقلاني مفتوح مجرد نسخة أخرى من الأحلام الكبرى التي يهاجمها الكتاب؟

هنا تظهر المشكلة الأخيرة في مشروع حازم صاغية: هو لا يوزع الشك بالتساوي. إنه يفكك خصومه بقسوة، لكنه لا يفكك الأرض التي يقف عليها بالحدة نفسها. ولذلك يبدو الكتاب أحياناً كأنه لا يقرأ الرومنطيقية بوصفها بنية من بنى الحداثة كلها إنما بوصفها مرضاً يصيب الآخرين فقط.

لكن الأفكار، مثل الأيديولوجيات، تمتلك قدرة غريبة على الاختباء داخل من ينتقدها. وأخطر الرومنطيقيات ليست تلك التي تصرخ باسم الأمة أو الثورة، بل تلك التي تعتقد أنها نجت نهائياً من الرومنطيقية.

* روائي عراقي